إشكالية التشابه في الاستعارة المكنية بين تفكير القدامى ورؤية المحدثين

أ. عثماني عمار
المركز الجامعي – غليزان

مقدمة:

تعتبر الاستعارة من أبرز مباحث علم البيان، حيث يشهد التاريخ عدة توقفات حول مفهومها، وخصائصها، ووظائفها لدى البلاغيين المتقدمين والمتأخرين. ابتداء من الجاحظ الذي يعود إليه فضل السبق في إبانة مفهومها، إلى عبد القاهر الجرجاني الذي نضجت على يديه بدراسته المستفيضة، في حين أن السكاكي ومدرسته وضحوا معالمها، وتناقلت الأجيال أفكارهم إلى يومنا هذا، في المدارس والجامعات العربية.

والحق أن المتقدمين، أو الذين سبقوا عبد القاهر الجرجاني كانوا يتحدثون عن الاستعارة بعامة دون أن يتطرقوا إلى تقسيمها، وبذلك لم ترد التسمية بالتصريحية أو المكنية على ألسنتهم، إلا على أيدي المتأخرين بدءا من أبي يعقوب السكاكي، إلى أن اتضحت بعد ذلك مجالات الدراسة.

تحاول هذه الدراسة التوقف عند العلاقة التي تربط بين طرفي الاستعارة المكنية، حيث يتفق البلاغيون المتقدمون والمتأخرون، بل حتى والمحدثون أن التشبيه هو محور الاستعارة التصريحية، وعلى رأسهم **عبد القاهر الجرجاني**[1]، **والسكاكي**[2]، ومن هنا جاءت العبارة المشهورة **"الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه"** إلا أن هذه القاعدة تبدو مختلة إن تعلق الأمر بالاستعارة المكنية، وهو لب حديثنا في هذه الدراسة. ولأجل ذلك نتوقف عند دراسات البلاغيين المتقدمين والمتأخرين في هذا النوع من الاستعارة لنعرف رأيهم في الموضوع.

كما نمر أيضا على بعض الدراسات العربية، التي ولع فيها أصحابها بنفض الغبار عن الإرث البلاغي، وهم متشبعون بما ولدته البلاغة الحديثة، إذ يرون أن البلاغة القديمة لا تقدم تحليلا دقيقا في فهم الصورة الاستعارية، فحاولوا السعي إلى وصل القيم البلاغية التراثية بحاضر النص الأدبي، بكل ما طرأ على أبنيته وعناصر تشكيله الجمالي من تطور، واستفادوا في ذلك من الدراسات الأسلوبية والنقدية الحديثة.

الاستعارة المكنية عند عبد القاهر الجرجاني:

على الرغم من أن عبد القاهر الجرجاني لم يتحدث عن الاستعارة المكنية بهذا الاسم إلا أنه كان ذكيا إلى حد بعيد، حينما رأى أن الاستعارة نوعان متباينان يقومان على التشبيه مع اختلاف طبيعة كل منهما.

وكان من هذا النوع الاستعارة المكنية، كما وصلت بهذا الاسم عند المتأخرين، وقد عبر عنها هو في قوله: **"... وضرب آخر من الاستعارة وهو نحو قوله إذا أصبحت بيد الشمال زمامها. هذا الضرب وإن كان الناس يضمونه إلى الأول حيث يذكرون الاستعارة، فليسا سواء، وذلك أنك في الأول تجعل الشيء للشيء ليس به. وفي الثاني للشيء الشيء له... وإذا قلت (إذا أصبحت بيد الشمال زمامها) فقد ادعيت للشمال يدا، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد".**[3]

ويوضح عبد القاهر رأيه في النوع الثاني من حيث إن الكلمة المستعارة فيه لم تنقل من معناها إلى معنى آخر، وإنما وصفت ببعض خصائصه على سبيل التخيل و الوهم، ويستعين في ذلك بقول لبيد:

وغـــداة ريـــح كشـــفت وقـــرة إذا أصـبحت بيـد الشـمال زمامهـا

حيث إن الاستعارة في الشاهد هي في قوله: "بيد الشمال زمامها" فقد حذف المشبه به وهو الإنسان، الذي يملك اليد في حين أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها بشبه الإنسان، فقد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيفما يريد، فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد.

ولما كانت الاستعارة المكنية تشبيها حذف فيه المشبه به واحتيج إلى معرفة المشبه به إلى إعمال الذهن، نجد أن عبد القاهر يوضح رأيه حين يقول[4]:

"إننا إذا رجعنا في النوع الأول من الاستعارة إلى التشبيه وجدناه يأتي عفوا من غير تأمل ولا تأول، فأنت تقول في "رأيت أسدا"، رأيت رجلا كالأسد" و"رأيت مثل الأسد" أو شبيها بالأسد. أما في النوع الثاني فإن التشبيه لا يوتيك تلك المواتاة إذ لا وجه لأن يقول "إذا أصبح شيء مثل اليد للشمال" أو "حصل شبيه باليد للشمال" وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه سترا، وتعمل تأملا وفكرا، وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول كقولك إذا أصبحت الشمال ولها في قوة تأثيرها في الغداة، شبه المالك تصريف الشيء بيده، وإجراءه على موافقته وجذبه نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته وتنحوها إرادته".

يشير نص عبد القاهر الجرجاني إلى علاقة الاستعارة بالتشبيه بين التصريحية والمكنية، والفرق بينهما، فإثباته في التصريحية يكون بسهولة دون أن يحتاج إلى إعمال الذهن بشكل أكبر، في حين أن الأمر يختلف مع المكنية التي تحتاج إلى تمعن وتأمل وفكر ناضج، حيث لن تحصل على التشبيه إلا بخرق الستار، وهذا راجع إلى عالم الوهم والتخيل الذي يصنعه الشاعر.

الاستعارة المكنية عند السكاكي:

ونتناول عنده، القسم الثاني من تقسيمات الاستعارة، الذي أطلق عليه باسم الاستعارة بالكناية. ولعل وصفه لهذه الأخيرة جعل الاستعارة تقع في جملة من المشاكل والمفارقات مع أنواع أخرى من الاستعارات وخاصة علاقتها مع التخيلية.

ولكي يتضح القول، نورد قول السكاكي فيما يتعلق بالاستعارة المكنية، وهذا ما نصه "في الاستعارة بالكناية هي كما عرفت أن تذكر المشبه وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها وهي أن تنصب إليه وتضيف شيئا من لوازم المشبه به المساوية مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر مضيفا إليها على سبيل الاستعارة التخيلية من لوازم المشبه به ما لا يكون إلا له ليكون قرينة دالة على المراد فتقول مخالب المنية نشبت بفلان طاويا لذكر المشبه به وهو قولك الشبيهة بالسبع"[5].

واستشهاد السكاكي بقول الشاعر:

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

نجده شبه المنية بالسبع، واستعير السبع للمنية في النفس من غير ذكر السبع، ولا تقديره في نظم الكلام، وأشير إلى جعل السبع المسكوت عنه مستعارا للمنية في النفس بإثبات الأظفار التي هي من لوازم السبع للمنية فقد كانت الاستعارة بطريقة الكناية.

وانطلاقا من قول السكاكي، يسجل الوالي محمد جملة من الملاحظات على الوصف الذي يقدمه لهذا القسم من الاستعارة:[6]

- إن المشبه لا يجوز أن يكون عرضة للتجوز الدلالي طالما أنه ماثل في النص، إذ أنه ينسجم مع باقي أجزاء السلسلة الكلامية التي تتخذ الموت موضوعا لها.

- صحيح أن الحجة السابقة لا تكفي لنفي التجوز عن المنية. أي أن القرينة اللفظية لا يمكن أن تدعم إلا بالقرينة الحالية أو المقامية، وهذه بدورها تؤكد أن الأمر يتعلق بالموت فعلا، فالقصيدة قد قيلت بمناسبة حلول الموت.

- إن الحكم بأن المنية مشبه يتنافى والحكم على الكلمة نفسها بأنها استعارة مكنية، إذ لو كانت هذه استعارة لوجب أن تشير إلى معنى غير المنية، وهذا غير معقول وغير مقبول نظر لما تأكد في الملاحظتين السابقتين.

- وما دمنا نؤكد أن المنية لا تشير إلى غير المنية، وجب أن تكون هي القرينة فمعناها واحد، لا يقبل ولا يستوجب تأويل.

- ويمكن أن نعثر في كلمة مخالب على المفارقة نفسها، فكيف يمكن أن تكون هذه الكلمة استعارة وقرينة في الآن نفسه، فالمعروف أن القرينة لا تكون مجاورة للاستعارة،

مستقلة عنها داخل الجملة الوارد فيها، أو تكون عنصرا خارج النص، إما أن تتعايش داخل الكلمة نفسها فهذا منطقيا غير معقول.

- ثم وكيف أن تتعايش استعارتان مختلفتان في مركب يتكون من كلمتين مع العلم أنه على أقل تقدير لتحقيق استعارة واحدة وجوب كلمتين.

وإثبات اللازم الذي يقصده السكاكي في الاستعارة المكنية يسمى الاستعارة التخيلية، وهي قرينة المكنية، وإنما سمي استعارة لأنه استعير ذلك الإثبات من المشبه به للمشبه.

وتخيلية لأن إثباته للمشبه خيل اتحاده مع المشبه به، فذلك اللازم حقيقة، أي مستعمل فيما وضع له لظهور أن المراد بالأظفار في قولنا (أظفار المنية نشبت بالأعداء) حقيقتها، وإنما التجوز في إثباتها للمنية، بمعنى أن ذلك الإثبات إثبات الشيء لغير ما هو له.

ويرى بدوي طبانه أن التخيلية عند الجمهور من المجاز بمعنى الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له، بل هي مجاز عقلي، والمكنية والتخيلية متلازمتان عند جمهور البلاغيين، بمعنى أن المكنية لا تفارق التخييلية، والتخييلية لا تفارق المكنية ضرورة، حيث لا استعارة بدون قرينة، ولا تكون قرينة الاستعارة المكنية لا التخييلية[7]. أي أن التخييلية قرينة المكنية، وقصده بالتخييلية إثبات لازم المشبه به للمشبه.[8]

ومن ثم فالاستعارة المكنية عند السكاكي، تكون فيها علاقة المشابهة بين طرفي التشبيه موجودة، أي أنك تنزع صفات المشبه به التي أضمرتها في نفسك، وتثبتها للمشبه، وكأنها لوازمه وصفاته الثابتة، كقول الشاعر:

وإذا العنايــة لاحظتــك عيونهــا نم فالمخــاوف كلــهن أمــان

حيث يشبه الشاعر العناية (المشبه) بالإنسان (المشبه به) واستعار لها في نفسه قرينة وهي العيون التي هي لازمة من لوازم الإنسان.

الاستعارة المكنية عند الخطيب القزويني:

حاول الخطيب القزويني في الاستعارة المكنية أن يوضح ما أتى به أستاذه السكاكي، حيث تحدث من خلال كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" عن الموضوع، ووافقه في الكثير من المسائل المتعلقة بالاستعارة المكنية، إلا انه لم يسلم ببعضها الآخر.

يرى جلال الدين السيوطي أن الاستعارة التخييلية والمكنية عند صاحب التلخيص، هما حقيقتان لغويتان، غير داخلتين في قسم المجاز، لأنهما لم تستعمل في المشبه به، وذلك أن يضمر التشبيه في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه، سوى المشبه، ويدل على ذلك التشبيه المضمر في النفس بان يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، فيسمى ذلك التشبيه المضمر استعارة بالكناية، ومكنيا عنها لأنه لم يصرح به بل دل عليه بذكر خواصه، ويسمى إثبات ذلك الأمر المختص بالمشبه به للمشبه استعارة تخييلية.[9]

ومعنى ذلك أن الاستعارة المكنية عند القزويني ما لم يذكر فيها شيء من أركان التشبيه ماعدا المشبه، ودل على المشبه به بذكر لازمه، وهذا التشبيه عنده تشبيه مضمر في النفس، ويسمى لازمها استعارة تخييلية، لأن معانيها لم تكن محققة لا حسا ولا عقلا.

وفي ذلك نجد أن الخطيب القزويني سار على درب أستاذه السكاكي عندما اعتبر أن الاستعارة المكنية تلازمها الاستعارة التخييلية، إلا أنه خالفه في تحديد معنى الاستعارة المكنية، فلم يذهب مثله إلى أنها لفظ المشبه، بل إلى أنها تشبيه مضمر في النفس، يقول القزويني:

" قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ويدل عليه (أي على ذلك التشبيه المضمر في النفس) بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون أمر ثابت حسا أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية " [10].

في هذا النص، يعترض الخطيب رأي أستاذه، ويرى أنه سلك سبيل التعسف والتأويل غير المقبول فيما ذهب إليه من أننا ندعي في هذه الاستعارة أن لفظ المشبه يرادف لفظ المشبه به، وأنهما يدلان على معنى واحد، ذلك أنه من المقطوع به أن لفظ المنية في بيت أبي ذؤيب السابق مراد به الموت لا الحيوان المفترس، فهو مستعمل في معناه الحقيقي، وليس في شيء أخر، وهكذا الحال في استعارة مماثلة.

لكن وعلى الرغم من أن الخطيب قد نجا من التعسف الذي وقع فيه السكاكي، إلا أنه هو الآخر لم يسلم من الوقوع فيما يمكن أن يكون موضع نقاش، فقوله بأن الاستعارة المكنية تشبيه مضمر في النفس، يعني أنه ربط هذا المصطلح بعملية نفسية أكثر من ربطه بظاهرة تعبيرية لغوية، مع المعلوم أن الدراسة البلاغية تتعامل مع الظواهر الأسلوبية، ذات الوجود الفعلي في الكلام الملفوظ، وليس مع الظواهر النفسية الخفية. [11]

موقف البلاغيين المحدثين من الاستعارة المكنية:

1 – موقف مصطفى ناصف: يقول مصطفى ناصف في أحد نصوصه:

المقام أيسر من ذلك، فالاستعارة لا علاقة لها مباشرة بالسبع والمشابهة، وإنما هي العالم الخيالي الذي يعيش فيه الشاعر، ويؤثره على التخيلات الساذجة الأولى التي قال بها كولردج، فقد أعيد تنظيم الإحساس بالمنية والسبع، وأعطى لهذين العنصرين وظيفة جديدة بل ربما يستحيل افتراس المنية نفسه عنصرا آخر متميزا من ذاك السبع نفسه وقد غاب عن أذهان محللي الاستعارة أن العناصر التي يتناولها الشاعر بالتفكيك وإعادة التركيب تصبح فعلا في الاستعارة جديدة، وأن هذه الجدة المتخيلة هي مصدرها ما في الاستعارة من روعة ". [12]

جاء هذا النص ليظهر موقف السكاكي من الاستعارة المكنية، ويرى الوالي محمد أن وصف ناصف الاستعارة بأنها "العالم الخيالي الذي يعيش فيه الشاعر ويؤثره على التخيلات الساذجة" لا يعني أنه قد تجاوزنا بما وصفه السكاكي للمكنية، بل إن ما قاله السكاكي لا يتيحه لنا مصطفى ناصف، في حين أن الأول يفتح لنا باب المناقشة، والثاني فمعطياته عينية غير قابلة للتجريب والتقنيين، أما قول ناصف بان الشاعر "أعطى العنصرين وظيفة جديدة" فهو الآخر لا يناقض رأي السكاكي، فالمنية لم تعد المنية، والأظفار لم تعد الأظفار، في المثال الذي قدمه السكاكي (أنشبت المنية أظفارها)[13].

المشابهة في الاستعارة عند ناصف:

يقول مصطفى ناصف:

"جرت النظرة القديمة على البحث عن التشابه الموضوعي بين حدي الاستعارة، ويمكن أن يدرك المتأمل مدى الوطأة التي يعانيها البلغاء حين يعبرون النماذج المصنوعة إلى الشواهد الأدبية."[14]

وهذا يعني أن مصطفى ناصف يرفض المشابهة بين حدي الاستعارة، ونظرة القدامى في البحث وطأة عنده. إنه يؤكد:

" إن المشابهة الموضوعية لا وجود لها في الاستعارة غالبا ومن الواضح أننا لسنا أمام أشياء تتداعى لاشتراكها في صفة أو صفات، فالاستعارة بنت الحدس، والحدس تعاطف يتجاوز المشابهة ولا يتقيد بها."[15]

وهكذا فالاستعارة بنت الحدس، ويقصد بالحدس المعرفة التي تجيء بلا فكر ولا قصد، والتشابه عنده يأتي سطحيا يتكرر ويطول ترديده، وفي هذا يقول: **"ليس القول بالمشابهة إلا قولا سطحيا تقريبيا أو استعاريا خفيا يطمئن إليه الذهن لتكراره وطول ترديده، إن الاستعارة في أثناء تعبيرها عن موقف جزئي معين قد تتجاوزه إلى أمهات تصورات المرء للحياة جملة، فكيف يستقيم لها التحليل."[16]**

وعلى هذا الأساس يرد الوالي محمد على ناصف بأن نظرة القدامى إلى المشابهة لم تكن من زاوية التحقيق المحسوس دائما، بل كانوا يميزون بين وجه الشبة الحقيقي حيث تكون المشابهة بين الطرفين متحققة بشكل حسي وهناك وجه الشبه التأويلي أو التخيلي، حيث لا تتحقق الصفة المشتركة في أحد الطرفين إلا بضرب من التأويل وهذا الاختلاف بشأن وجه الشبه والتباعد بين الطرفين يصل إلى حد الجمع بين أشياء تنتمي إلى دوائر حسية مختلفة.[17]

إن مصطفى ناصف يرفض أن تكون الاستعارة المكنية مبنية على المشابهة الكائنة بين المستعار منه والمستعار له، وفي هذا يقول: **" قد نفض مشكلة الاستعارة بالكناية التي يرتد فيها البلغاء إلى معنى المشابهة ثم يضطرون إلى أن يفرضوا أن المستعار حذف ورمز إليه بشيء**

من لوازمه، فلسنا في هذا النموذج أمام مشابهة مكنية فنضطر إلى أن ننظر في مذهب القزويني أو السكاكي أو جمهور البلغاء ذلك لأننا لا نميل إلى أن تكون المنية في بين أبي ذؤيب المشهور، مشبهة بالسبع في اغتيال النفوس، ولا نميل إلى أن المنية هي السبع بادعاء السبعية لها. وإنكار أن تكون شيئا آخر غير السبع، ولن نرى أن المكنية هي التشبيه المضمر في النفس المرموز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه وهذا الإثبات هو الاستعارة التخييلية." [18]

وإذا كان مصطفى ناصف رأى أنه لا بد من النظر في كلام جمهور البلاغيين، وخاصة الكلام الذي خلفته مدرسة السكاكي فيما يخص قضية الاستعارة المكنية فإن في الموضوع يطل علينا ناقد آخر، ولع هو الآخر بنفض الغبار عن التراث البلاغي، إنه شفيع السيد، الذي استطاع وهو يعالج مسألة الاستعارة المكنية أن يعطي البديل من أجل تذوق الصورة الاستعارة في هذا النوع من النموذج البلاغي.

2 – موقف السيد شفيع: يرى شفيع السيد أن ربط الاستعارة بالتشبيه أمر لا يستقيم في كل النماذج، باعتبار أن العلاقة التشبيهية بصورتها المألوفة لا تتحقق في الكثير من الأمثلة، ويقر بأن عبد القاهر الجرجاني كان موفقا إلى حد كبير، فبرغم أنه تحدث عن هذه العلاقة نظريا إلا أنه لم يطبقها في تحليل النماذج المجسدة لهذا النوع من الاستعارة، حيث يقول: **"فخلا تحليله لبعض الاستعارات التي تناولها من رصد لوجه الشبه الذي يجمع بين طرفيها، فكان أصدق تعبيرا عن العلاقات الجديدة بين الأشياء، وأرهف تذوقا لأساليب اللغة، وأبعد عن تحكم القواعد، على النحو الذي يتجلى في منهجي السكاكي والخطيب".** [19]

ورفضه لعلاقة التشبيه بين طرفي الاستعارة المكنية، لم يأت عبثا وإنما جاء بعد مراس وتدرب على آيات قرآنية ونماذج شعرية انطلق منها ليحدد تصوره والأطر الخاص بهذا النوع من الاستعارة. ومن النماذج، قول شوقي:

ولـــد الهـــدى فالكائنـــات ضـــياء وفـــم الزمـــان تبســـم وثنـــاء

ويقول، أي شفيع السيد: **"أي وجه للشبه بين الزمان والإنسان"**[20] وكذلك: **"أي علاقة يمكن أن تسمى وجه شبه بين شاطئ الخليج والإنسان في قول الشاعر السعودي غازي القصيبي:**

(أمـــر بالشـــاطئ الغـــافي فأوقظـــه بقبلـــة وأناديـــه إلى الســـمر)" [21]

ونفس الرؤية بين الذل والطائر في وقوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾. **يقول السيد شفيع معلقا على هذه الآية: " أليس من السخف أن يقال في هذه الآية الكريمة: شبه الذل بطائر بجامع الخضوع، واستعير الطائر بالذل، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الجناح... الخ. فأي خضوع يتصف به الطائر حتى يستقيم التشبيه بينه وبين الذل ".** [22]

كما أن شفيع يساند ويؤيد عبد القادر القط حينما رأى أن الاستعارة تصور جديد لأشياء تكتسب فيه وجودها في الواقع زانه ليس بالضروري أن يكون هذا الوجود قائما على التشابه العقلي بين الحامل والمحمول على حسب اصطلاحات ريتشاردز، أو بين المستعار منه والمستعار له، فالمهم بالنسبة لشفيع هو إثارة الإحساس المطلوب بشكل أعمق وأشد تأثيرا في التركيب الاستعاري. حيث تبث الصورة الاستعارية حياة فيما لا حياة فيه، ويرى أنه لا ننشغل في تحليل الاستعارة **"بتصيد وجه الشبه بين الطرفين، وإنما يقتصر الأمر على توضيح معالم الصورة وكشف أبعادها".**

يقر شفيع بدلا من أننا نقول مثلا في قوله تعالى: "﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ **أنه استعارة مكنية في الصبح حيث شبه بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وينتهي الأمر عند ذلك. نقول بأسلوب آخر دل على المراد: إن التنفس سمة أساسية للكائن الحي، بل علامة الحياة فيه ولذا فان تصوير الصبح وقد تنفس مع ملاحظة جرس هذه الكلمة وإيقاع التعبير كله يشع في النفس الإحساس بالحياة المفاضة على الطبيعة والإنس بهذه الحياة التي تتنفس في كل حي، من الزهرة المتفتحة للندى، إلى الطير المتيقظ من الكرى، إلى الإنسان المتطلع إلى الضياء وكان كل كائن في هذا الوجود يفتح رئتيه لنسيم الصباح البليل، وينفض الكرى عن عينيه في استبشار وديع ".** (24)

واستشهاد بتلك الرؤية يقرأ مرة ثانية قول إبراهيم ناجي:

هـــل رأى الحـــب ســـكارى مثلنـــا كـــم بنينـــا مـــن خيـــال حولنـــا

ومشـــــينا في طريـــــق مقمـــــر تثـــب الفرحـــــة فيـــــه قبلنـــــا

يقول: **" فلا نتحير في إقامة مشابهة بين الفرحة والإنسان، استجابة لقواعد البلاغيين المتأخرين، وإنما نقول إن الشاعر أراد أن يعبر عن انتشائه، هو وحبيبته بمتعة اللقاء السعيد، وإحساسهما معا بالفرحة الغامرة، التي شاعت في الجو كله فتخيل هذه الفرحة كائنا بشريا يمرح وينطلق ويتراقص من حولهما "** (25).

ويستقرئ شفيع السيد بيت شوقي السابق، فيقول: **" أراد أن يجسد معنى الفرحة الكبرى التي عمت الكون بأسره لحظة ميلاد النبي الأعظم محمدﷺ، فتصور الوجود كله إنسانا، قد ملأت الفرحة كل جوانبه، وبدت على فمه ابتسامة حرة، وانساب منه حديث عذب مستطاب، يفيض بالثناء على الوليد الذي أشرقت الدنيا بمولده ".**(26)

وبهذه الرؤية التي يدعو إليها شفيع نتمكن المضي في تحليل أساليب الاستعارة المكنية، دون الحاجة إلى البحث عن وجه التشبيه الذي يبدو في أكثر الأحيان وطأة وأمرا عسيرا، مستكرها لا معنى له.

ويرى البلاغيون العرب المحدثون – بعد اطلاعهم على تحليل الصورة الاستعارية المكنية في البلاغة الغربية – أن البحث عن عناصر التشبيه في كل صورة استعارية يؤدي بالناقد إلى التعسف مما يجعله يغفل عن جمالها وأثرها في النفس، بسبب خضوعها للمنطق الأرسطي المولع بالتفريع، ومعانتها من النظرة التجزئية، وقد يجعلها تعجز عن الإدراك الكلي للصورة البيانية، بينما تلجأ البلاغة الحديثة إلى النظرة الكلية، وتركز على جمال الصورة وأثرها.

ووفقا لهذه الرؤية نقرا أبياتا للأمير عبد القادر، وهو يتغزل بابنة عمه:

أود بــأن أرى ظــبي الصــحاري وأرقــب طيفــه والليــل ســار

وأطلــب قربــه فيزيــد بعــدا قــديما – مــن وصــال – في نفــار

وهــذا الظــبي لا يرعــى ذمامــا ولا يرعــى مؤانســة لجــار

ويعتــبني فيكســو القلــب بســطا لأن العتــب يطفــئ حــر نــارى[27]

في هذه الأبيات التي بين أيدينا يتغزل الشاعر بابنة عمه، ويتغنى بجمالها وصفاتها الحميدة، وجعلها محطة إعجاب، وبالتشوق إليها، تصور أن الليل إنسان بإضفاء صفة السير عليه، يوم يود أن يراها، وبتغزله للظبية (ابنة عمه) تخيل أن الذمام قطع الشاة وينفي الرعي لها، وتصور القلب جسدا يكسوه السرور والغبطة بقبوله لها، والإصغاء إلى عذره، وتخيل هذا العتاب ماء يطفئ حر النار.

وبمنهج شفيع السيد نقرأ قول مفدي زكريا:

يــا سمــاء أقلعــي... ويــا أرض ميــدي واســم يــا عقــل... واخلصــي يــا ضــمائر

إنها استعارة مكنية أراد الشاعر من خلالها التنويه بنشوة الفرح بالنصر، فالتفت زكريا يخاطب الكون بسمائه وأرضه، تخيلهما كائنا بشريا، فنادى إياهما أن يشاركاه هذه الفرحة الكبرى، فقد ذهب الطوفان، طوفان المستعمر الغاشم وطوفان العبودية بنيل الجزائر لحريتها واستقلالها.

وعلى هذا المنوال نقرأ مقطوعة شعرية من قصيدة " أغنية الأحزان " للشابي، التي يقول فيها:

غــنني أنشــودة الفجــر الضــحوك

أيهــا الصــداح

فلقــد جــر عــني صــوت الظــلام

ألمــا علمــني كــره الحيــاة

إن قلــبي مــل أصــداء النــواح

❖ ❖ ❖

غــنني يــا صــاح

حطمـــــــت كـــــف الأســــــى قيثـــــــارتي
في يـــــــــــــــــد الأحــــــــــــــــلام[28]

والشاعر في هذه المقطوعة يحسره الحزن الذي يكالبه من بداية النهار إلى آخره، فتخيل الفجر آدميا يضحك، وأضفى على القلب صفة الملل من الحياة، وتصور الأسى الذي يحس به إنسانا له كف، حطم آلاته الموسيقية التي يتغنى بها في الأفراح، وكما أنه ألزم لليد أحلاما فتخيلها العقل الذي يستنير به الطريق، وصنع نسيجه هذا على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول الشابي أيضا في قصيدة " إرادة الحياة ":

ومـــــن لم يعانقـــه شـــوق الحيـــاة   تبخـــــر في جوهــــا ، وانــــدثر[29]

هناك استعارة مكنية في البيت أراد الشاعر من خلالها أن يعبر عن أن المرء الذي ينفق حياته متضجرا خاملا لا يسعى سعيه ولا ينهض إلى جلي، ليمنح عمره معنى ويطبع آثار أقدامه على أديم الوجود، إن ذلك المرء يحيا لكن حياته تبقى دون جدوى، ثم يموت ويزول كأنه لم يطأ عتبة الحياة، ولم يشخص على مسرحها فتصور الشوق إنسانا يعانق كل أمر جدير بالاهتمام.

خاتمة:

وفي ختام هذا الموضوع الذي انصب فيه البحث على معرفة طبيعة العلاقة التي بين المشبه والمشبه به في الاستعارة المكنية، نتوصل فيه إلى جملة من النتائج نذكرها على النحو الأتي:

- تعريف الاستعارة بأنها "تشبيه حذف أحد طرفيه" أمر لا يستقيم في كل الأحوال.
- العلاقة التي تربط بين المستعار منه والمستعار له في الاستعارة التصريحية هي علاقة المشابهة القائمة بين الحدين، وهو ما أكد عليه البلاغيون قدامى ومحدثون.
- في أغلب الأحيان يكون التشبيه بين حدي الاستعارة المكنية أمرا مستحيلا.
- يستعصى في الاستعارة المكنية البحث عن التشابه بين طرفيها.
- نتيجة لاستعصاء ينبغي لنا لفهم الصورة توضيح معالمها وأبعادها.
- ومما سبق يمكن القول بأن تعريف الاستعارة بأنها "تشبيه حذف أحد طرفيه" لدى جمهور البلاغيين تعريف خاص بالاستعارة التصريحية فقط، ولا بمكن تطبيقه على الاستعارة المكنية في أحيان كثيرة.

ولعل موضوعنا هذا محاولة لمواصلة سير البحث البلاغي انطلاقا من جهود البلاغيين القدامى، تطويرا للمنهج وإخصابا له، وتخليصا له مما علق به من تفريعات وتقعيدات جزئية، لا تنمي حسا أدبيا، ولا تقدم جديدا للقارئ.

مكتبة البحث:

بدوي طبانة: علم البيان، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، دار الثقافة، بيروت، د ط، 1981م

الجرجاني، عبد القاهر: - أسرار البلاغة، تحقيق عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991 م.

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، حققه وعلق عليه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، دط، 1980.

السكاكي، أبو يعقوب: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت دط، 1341 هـ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن : شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1939 م.

الشابي، أبو القاسم: الديوان، قدمه وشرحه احمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995 م.

شفيع السيد: التعبير البياني، رؤية بلاغية نقدية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1995 م.

عبد القادر الأمير: الديوان، تحقيق وشرح زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1988 م.

القزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تنقيح وتعليق، د. عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، مج، ط 3، 1993 م

ناصف، مصطفى: الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983 م.

الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، د ط، 1990 م.

هوامش البحث:

(1) ينظر، عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 53.

(2) ينظر، السكاكي: مفتاح العلوم، ص 135 وما بعدها.

(3) عبد القاهر الجرجاني: السابق، ص 35.

(4) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 33 و ص 34.

(5) السكاكي: مفتاح العلوم، ص 160 و161.

(6) ينظر، الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ص118 وما بعدها.

(7) ينظر، بدوي طبانة: علم البيان، ص 181 وما بعدها.

(8) بنظر شفيع السيد: التعبير البياني، ص 133.

(9) ينظر السيوطي: شرح عقود الجمان، ص 98.

(10) الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص184 وص149.

(11) ينظر، شقيع السيد: المرجع السابق، ص134 وما بعدها.

(12) مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، ص 137 وما بعدها.

(13) ينظر، الولي محمد: الصورة الشعرية، ص 241.

(14) مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، ص 139.

(15) المرجع نفسه، ص 140.

(16) نفسه، ص 134.

(17) ينظر، الولي محمد: الصورة الشعرية، ص 242 و 243.

(18) مصطفى ناصف: المرجع السابق، ص 137

(19) السيد شفيع: التعبير البياني، ص 135.

(20) المرجع نفسه، ص 135.

(21) و (22) و (23) المرجع نفسه، ص 136.

(24) و (25) نفسه، ص 137.

(26) نفسه، ص 138.

(27) الأمير عبد القادر: الديوان، ص 159 وما بعدها.

(28) أبو القاسم الشابي: الديوان، ص 45.

(29) المصدر نفسه، ص 70.